الفصل الأول

الطريق إلى الجحيم

كانت الشمس تميل نحو الغروب، لكنها لم تكن ترحم.

الطريق الصحراوي الممتد أمامهما يلمع كأنه صفيح محترق، والهواء يهتز فوق الرمال كسراب دائم. السيارة القديمة تسير ببطء، والمحرك يصدر صوتًا أجشًا كأنه يحتضر.

ليلى أسندت رأسها إلى الزجاج الساخن ونظرت إلى الأفق اللانهائي.

قالت بصوت متعب:

— لم نرَ سيارة واحدة منذ ساعتين يا أحمد... أين نحن بالضبط؟

أحمد أمسك عجلة القيادة بقوة، وعيناه مثبتتان على العداد.

— الكيلو 257... حسب الخريطة يجب أن نصل إلى الطريق الرئيسي قبل المغرب. لا تقلقي.

لكنه كان قلقًا. العرق يتصبب من جبهته رغم المروحة الضعيفة، والحرارة داخل السيارة خانقة كأنها فرن. منذ أن غادروا أسوان بعد المؤتمر الجيولوجي، لم تسِر الأمور على ما يرام. أولًا تأخرهم في الطريق، ثم هذا الصوت الغريب من المحرك الذي بدأ منذ نصف ساعة.

فجأة... صفير حاد، ثم اهتزاز عنيف.

السيارة تباطأت كأن يدًا خفية تمسك بها.

أحمد ضغط على دواسة البنزين، لكن المحرك رفض. انطلقت منه همهمة أخيرة ثم صمت تمامًا.

— اللعنة!

نزل بسرعة، وفتح غطاء المحرك. سحابة من البخار الأبيض اندفعت في وجهه. لمس الراديياتور بحذر ثم سحب يده.

— ثقب... ثقب صغير في الراديياتور. الماء يتسرب كله.

ليلى نزلت من الجهة الأخرى، وشعرها الداكن ملتصق بجبهتها من العرق. نظرت حوله في يأس.

لا شيء سوى رمال وحصى وأفق يحترق. ثم لمحت شيئًا على البعد... بناية بيضاء متداعية، ومحطة بنزين قديمة بجانب الطريق الفرعي.

— هناك شيء... انظر.

دفعا السيارة معًا تحت الشمس الحارقة حتى وصلا إلى المحطة المهجورة. المضخات صدئة، واللافتة مكتوب عليها بخط باهت «محطة الحلفاء – 1943». لم يكن هناك أحد.

وفجأة ظهر رجل من خلف المبنى.

نحيف، أصلع جزئيًا، يرتدي قميصًا رماديًا باهتًا وبناطيل واسعة. كان يمسح يديه بقطعة قماش متسخة، وعيناه غائرتان كأنهما تبحثان عن شيء بعيد.

اقترب ببطء وقال بصوت أجش:

— المحرك سخن... فيه ثقب صغير في الراديياتور.

أحمد رفع رأسه متفاجئًا.

— كيف عرفت؟

الرجل لم يجب مباشرة. نظر إلى السيارة ثم إلى ليلى، ثم قال بهدوء غريب:

— أنا صابر... أعيش هنا. يمكنني إصلاحه، لكن يحتاج نصف ساعة على الأقل حتى يبرد ويُسد الثقب.

ليلى مسحت العرق عن وجهها وقالت:

— هل هناك مكان ننتظر فيه بعيدًا عن هذا الحر؟

أشار صابر بيده إلى المبنى الأبيض المتداعي خلف المحطة.

— هناك... الدور الأرضي كان سجنًا للحلفاء أيام الحرب. الدور الأول مسكني. يمكنكما الانتظار في الظل.

أحمد تردد لحظة. المكان بدا مهجورًا ومخيفًا، لكن الحر كان أقوى من أي تردد. نظر إلى ليلى فرأى الإرهاق واضحًا في عينيها، فهز رأسه موافقًا.

صابر سار أمامهما نحو الباب الخشبي القديم.

فتحه بصوت صرير طويل، ودخل الظل البارد نسبيًا.

لم يكن أحد يدري أن نصف الساعة هذه...

ستتحول إلى ليلتين من الجحيم.

الفصل الثاني

السجن القديم

دخلوا خلف صابر إلى المبنى الأبيض المتداعي.

الظل كان أخف من الحر الخارجي، لكنه كان ظلًا ثقيلًا، كأنه يحمل رائحة قديمة من رطوبة وعفن وحديد صدئ. الباب الخشبي أغلق خلفهم بصوت صرير طويل، ثم سُمع صوت مزلاج يُدفع بقوة.

أحمد التفت بسرعة.

— لماذا أغلقت الباب؟

صابر لم يرد. سار أمامهما في الممر الضيق المظلم، خطواته بطيئة وثابتة. الجدران سميكة، مطلية بطلاء أبيض تقشر مع الزمن، وعليها كتابات باهتة بأسماء وتواريخ:

«جندي هانز – 1942»

«إنجليزي... لن ننسى»

«الله معنا – 12 مارس 1943»

ليلى لمست جدارًا وقالت بصوت منخفض:

— هذا مكان قديم جدًا... يبدو أنه لم يُستخدم منذ عقود.

وصلا إلى قاعة صغيرة في الدور الأرضي. على اليمين واليسار زنزانتان متقابلتان، أبوابهما الحديدية مفتوحة جزئيًا. القضبان سميكة وصدئة، والنوافذ عالية ضيقة لا تدخل منها سوى شرائح رفيعة من الضوء.

فجأة توقفت ليلى.

عينها اتسعت، ويدها أمسكت بذراع أحمد بقوة.

— أحمد... انظر.

في الزنزانة اليسرى كان هناك رجل.

ممتد على بطانية قذرة فوق أرضية ترابية، نحيف جدًا حتى بدت عظامه واضحة تحت الجلد الشاحب. عيناه مفتوحتان لكنهما زجاجيتان لا تريان شيئًا. يداه متسختان ممدودتان على جانبيه، وفمه مفتوح قليلًا كأن أنفاسه توقفت منذ وقت.

أحمد اقترب بحذر.

— يا رجل... هل تسمعنا؟

لا جواب. لا حركة. فقط صمت كثيف.

صابر وقف عند الباب، وجهه جامد بلا تعبير. قال بصوت خشن:

— هذا... زائر سابق. وجدته منذ يومين. حاولت مساعدته لكن حالته سيئة.

ليلى انحنت قليلًا، ثم تراجعت بسرعة وهي تضع يدها على فمها.

— رائحته... كأنه ميت منذ ساعات.

أحمد التفت إلى صابر، صوته أصبح أكثر حدة:

— لماذا تركته هنا؟ لماذا لم تتصل بأحد؟ هذا المكان معزول تمامًا.

صابر نظر إليهما بعينين غائرتين، ثم حرك يده ببطء نحو جيبه الخلفي. أخرج شيئًا معدنيًا لامعًا... بندقية قديمة قصيرة.

رفعها بهدوء ووجهها نحوهما.

— عودا إلى الزنزانة.

أحمد تجمد مكانه.

— ماذا؟ هل جننت؟

صابر لم يرفع صوته. قال بنفس الهدوء الغريب:

— عودا الآن. لا أريد أن أستخدمها... لكنني سأستخدمها إن لزم الأمر.

ليلى تشبثت بذراع زوجها، صوتها يرتجف:

— أحمد... افعل ما يقوله.

دفعهما صابر ببطء داخل الزنزانة اليمنى. الباب الحديدي أغلق بصوت معدني حاد، ثم دار المفتاح في القفل مرتين.

من خلف القضبان نظر إليهما صابر للحظة طويلة، كأن شيئًا داخله يتصارع. ثم استدار ومشى نحو السلم الخشبي المؤدي إلى الدور الأول. سمعت أقدامه تصعد، ثم صوت باب يُغلق بقوة في الأعلى.

الصمت عاد.

لكنه لم يعد صمتًا عاديًا.

ليلى جلست على الأرض الترابية، ظهرها إلى الجدار البارد، وبدأت ترتجف رغم الحر.

أحمد أمسك بالقضبان وحاول هزها بكل قوته. لم تتحرك مليمترًا واحدًا.

همس وهو ينظر إلى الزنزانة المقابلة حيث الرجل النحيف لا يزال ممددًا بلا حراك:

— هذا ليس سجينًا عاديًا... وهذا الرجل ليس مجنونًا عاديًا.

من بعيد، في أعماق المبنى أو ربما من تحت الأرض، بدأ صوت خافت جدًا يتشكل.

صوت يشبه الفحيح... بطيء... يقترب.

الفصل الثاني

السجن القديم

دخلوا خلف صابر إلى المبنى الأبيض المتداعي.

الظل كان أخف من الحر الخارجي، لكنه كان ظلًا ثقيلًا، كأنه يحمل رائحة قديمة من رطوبة وعفن وحديد صدئ. الباب الخشبي أغلق خلفهم بصوت صرير طويل، ثم سُمع صوت مزلاج يُدفع بقوة.

أحمد التفت بسرعة.

— لماذا أغلقت الباب؟

صابر لم يرد. سار أمامهما في الممر الضيق المظلم، خطواته بطيئة وثابتة. الجدران سميكة، مطلية بطلاء أبيض تقشر مع الزمن، وعليها كتابات باهتة بأسماء وتواريخ:

«جندي هانز – 1942»

«إنجليزي... لن ننسى»

«الله معنا – 12 مارس 1943»

ليلى لمست جدارًا وقالت بصوت منخفض:

— هذا مكان قديم جدًا... يبدو أنه لم يُستخدم منذ عقود.

وصلا إلى قاعة صغيرة في الدور الأرضي. على اليمين واليسار زنزانتان متقابلتان، أبوابهما الحديدية مفتوحة جزئيًا. القضبان سميكة وصدئة، والنوافذ عالية ضيقة لا تدخل منها سوى شرائح رفيعة من الضوء.

فجأة توقفت ليلى.

عينها اتسعت، ويدها أمسكت بذراع أحمد بقوة.

— أحمد... انظر.

في الزنزانة اليسرى كان هناك رجل.

ممتد على بطانية قذرة فوق أرضية ترابية، نحيف جدًا حتى بدت عظامه واضحة تحت الجلد الشاحب. عيناه مفتوحتان لكنهما زجاجيتان لا تريان شيئًا. يداه متسختان ممدودتان على جانبيه، وفمه مفتوح قليلًا كأن أنفاسه توقفت منذ وقت.

أحمد اقترب بحذر.

— يا رجل... هل تسمعنا؟

لا جواب. لا حركة. فقط صمت كثيف.

صابر وقف عند الباب، وجهه جامد بلا تعبير. قال بصوت خشن:

— هذا... زائر سابق. وجدته منذ يومين. حاولت مساعدته لكن حالته سيئة.

ليلى انحنت قليلًا، ثم تراجعت بسرعة وهي تضع يدها على فمها.

— رائحته... كأنه ميت منذ ساعات.

أحمد التفت إلى صابر، صوته أصبح أكثر حدة:

— لماذا تركته هنا؟ لماذا لم تتصل بأحد؟ هذا المكان معزول تمامًا.

صابر نظر إليهما بعينين غائرتين، ثم حرك يده ببطء نحو جيبه الخلفي. أخرج شيئًا معدنيًا لامعًا... بندقية قديمة قصيرة.

رفعها بهدوء ووجهها نحوهما.

— عودا إلى الزنزانة.

أحمد تجمد مكانه.

— ماذا؟ هل جننت؟

صابر لم يرفع صوته. قال بنفس الهدوء الغريب:

— عودا الآن. لا أريد أن أستخدمها... لكنني سأستخدمها إن لزم الأمر.

ليلى تشبثت بذراع زوجها، صوتها يرتجف:

— أحمد... افعل ما يقوله.

دفعهما صابر ببطء داخل الزنزانة اليمنى. الباب الحديدي أغلق بصوت معدني حاد، ثم دار المفتاح في القفل مرتين.

من خلف القضبان نظر إليهما صابر للحظة طويلة، كأن شيئًا داخله يتصارع. ثم استدار ومشى نحو السلم الخشبي المؤدي إلى الدور الأول. سمعت أقدامه تصعد، ثم صوت باب يُغلق بقوة في الأعلى.

الصمت عاد.

لكنه لم يعد صمتًا عاديًا.

ليلى جلست على الأرض الترابية، ظهرها إلى الجدار البارد، وبدأت ترتجف رغم الحر.

أحمد أمسك بالقضبان وحاول هزها بكل قوته. لم تتحرك مليمترًا واحدًا.

همس وهو ينظر إلى الزنزانة المقابلة حيث الرجل النحيف لا يزال ممددًا بلا حراك:

— هذا ليس سجينًا عاديًا... وهذا الرجل ليس مجنونًا عاديًا.

من بعيد، في أعماق المبنى أو ربما من تحت الأرض، بدأ صوت خافت جدًا يتشكل.

صوت يشبه الفحيح... بطيء... يقترب.

الفصل الثالث

الفحيح

غابت الشمس تمامًا.

الظلام دخل الزنزانة بسرعة، ولم يبقَ سوى شريحة رفيعة من الضوء الباهت تتسلل من النافذة العالية. الهواء أصبح أثقل، ورائحة التراب والعفن اختلطت بشيء آخر... شيء معدني وحاد.

أحمد جلس القرفصاء أمام الباب الحديدي، وأخرج من حقيبة ليلى مبرد أظافر صغيرًا كانت تحتفظ به. بدأ يعمل بهدوء محموم على أحد القضبان، يبرد الحديد الصدئ ببطء. العرق يتصبب من جبينه رغم البرودة النسبية داخل المبنى.

ليلى كانت جالسة في الزاوية، تسند ظهرها إلى الجدار، وعيناها مثبتتان على الزنزانة المقابلة. الرجل النحيف ما زال ممددًا بلا حراك، لكن شيئًا ما تغير في ملامحه. بدا أكثر شحوبًا، وكأن الحياة سُحبت منه بالكامل.

همست:

— أحمد... أظن أنه مات.

لم يرد أحمد. كان يركز كل قوته على المبرد. فجأة توقف.

رفع رأسه ببطء.

— اسمعي.

في البداية لم يكن سوى همس بعيد. ثم تحول إلى صوت واضح... فحيح منخفض، رطب، كأنه شيء لزج يزحف على التراب. الصوت كان يقترب من جهة القبو أو من نهاية الممر.

ليلى ضغطت يدها على فمها كي لا تصرخ.

أحمد وقف ببطء، ممسكًا بالقضبان، وعيناه تحدقان في الظلام خارج الزنزانة.

ثم ظهر.

كتلة هلامية شفافة، بحجم كلب كبير، تضيء بضوء أخضر باهت خافت. تتحرك ببطء شديد، تاركة أثرًا لامعًا على الأرض. الفحيح يصدر من داخلها كأنه آلاف الألسنة الصغيرة تتحرك معًا.

الكتلة توقفت أمام الزنزانة المقابلة.

ثم زحفت إلى الداخل عبر القضبان كأنها سائل حي.

الرجل النحيف لم يتحرك. لم يصرخ. فقط ارتجف جسده مرة واحدة بعنف حين لامسته الكتلة. الضوء الأخضر اشتد، وغطى الجسم بالكامل. سُمع صوت امتصاص خافت... ثم تفتت الجسد ببطء. اللحم والملابس والعظام ذابت داخل الهلام كأنها لم تكن موجودة. في أقل من دقيقة لم يبقَ شيء سوى بقعة رطبة لامعة على البطانية القذرة.

ليلى أطلقت صرخة مكتومة، ثم انهارت على الأرض وهي ترتجف.

أحمد تجمد مكانه، فمه مفتوح، وعقله يرفض ما تراه عيناه.

من أعلى السلم سُمعت خطوات بطيئة.

صابر نزل حاملًا مصباحًا زيتيًا صغيرًا. وجهه شاحب أكثر من ذي قبل، وعيناه غائرتان كأنهما لا تخصانه. وقف أمام الزنزانة المقابلة، ونظر إلى البقعة الرطبة طويلاً. ثم أخرج قلم رصاص من جيبه، وكتب على الحائط بخط كبير مرتجف:

الأحد 22 أغسطس

الضحية الثالثة – سائق لوري

التفت نحوهما. صوته كان أجش وغريبًا، كأنه يتكلم من مكان بعيد داخل رأسه:

— هو يحتاج طعامًا... وأنا أحضره له.

ثم صعد السلم مرة أخرى دون أن ينتظر ردًا.

الباب في الدور الأول أُغلق، والمزلاج دُفع بقوة.

الصمت عاد.

لكن الفحيح لم يعد بعيدًا.

كان الآن في الممر... يقترب ببطء من زنزانتهما.

الفصل الرابع

الليلة الأولى

الفحيح توقف فجأة عند باب الزنزانة.

الكتلة الهلامية توقفت خلف القضبان، ضوءها الأخضر الخافت ينعكس على وجوههما. أحمد دفع ليلى خلفه وغرس نفسه أمام الباب، رغم أنه كان يعرف أن القضبان لن تحميهما إن أراد الكائن الدخول.

لكن الكائن لم يدخل.

ظل هناك دقائق طويلة، كأنه يدرسها، ثم انسحب ببطء نحو الظلام في نهاية الممر. الفحيح ابتعد تدريجيًا حتى تلاشى تمامًا.

ليلى كانت ترتجف بعنف. همست بصوت مكسور:

— ماذا كان هذا الشيء؟ أحمد... ماذا رأينا؟

لم يجب. كان يحاول أن يلتقط أنفاسه. قلبه يضرب كأنه يريد أن يخرج من صدره.

بعد ساعة تقريبًا سُمعت خطوات على السلم.

صابر نزل حاملًا صينية معدنية قديمة. وضعها أمام الباب ثم دفعها بقدمه تحت القضبان. عليها رغيف خبز أسود وقطعة جبن صفراء كبيرة، وزجاجة ماء بلاستيكية.

قال بصوت أجش بلا نبرة:

— كلوا. ستحتاجان قوتكم.

أحمد نظر إلى الطعام ثم إلى وجه صابر.

— أنت لست مجنونًا... أليس كذلك؟ هناك شيء يسيطر عليك.

صابر لم يرد مباشرة. عيناه تحركتا ببطء كأنه يستمع إلى صوت آخر داخل رأسه. ثم قال:

— هو يتكلم معي منذ أسابيع. يقول لي ما يجب أن أفعل. إن لم أطعه... يؤلمني من الداخل.

دفع الصينية أكثر ثم صعد السلم مرة أخرى. الباب في الأعلى أُغلق، والمزلاج دُفع بقوة.

أحمد رفع الرغيف وشمّه. لم تكن هناك رائحة غريبة واضحة، لكنه لم يثق. كسر قطعة صغيرة وأعطاها لليلى.

— كلي قليلًا فقط. نحن بحاجة إلى القوة.

أكلت على مضض. الجبن كان مرّ المذاق بشكل غريب، لكنه لم يعلق. بعد دقائق بدأت عيناها تثقلان. حاولت أن تتكلم فوجدت لسانها ثقيلًا.

— أحمد... أشعر بدوخة... قوية جدًا...

سقطت على جنبه قبل أن يتم جملتها. أحمد أمسكها بسرعة، وهزها، لكن جفونها لم تنفتح. تنفسها كان بطيئًا ومنتظمًا... مخدرًا.

نظر إلى قطعة الجبن المتبقية في يده وألقاها بعيدًا بغضب.

— ابن الكلب... دسّ فيها شيئًا.

جلس على الأرض وسند رأس ليلى على ركبته. الظلام داخل الزنزانة أصبح كاملًا تقريبًا. فقط خيط رفيع من ضوء القمر يتسلل من النافذة العالية.

ثم بدأ الصوت.

ليس فحيحًا هذه المرة.

همس داخل رأسه مباشرة، ناعم وكأنه صوت شخص يعرفه منذ زمن طويل:

«لا تقاوم... الجسد يتعب... الذكريات ألذ... سآخذها برفق...»

أحمد ضغط على رأسه بيديه.

— اخرج من رأسي!

الهمس ضحك ضحكة منخفضة باردة:

«أنت قوي... لكن الزوجة أضعف... ذكرياتها غنية... الحب... الخوف على الجنين الذي لم تخبرك به بعد...»

تجمد أحمد مكانه.

الجنين؟

لم تكن ليلى قد أخبرته بعد. كيف عرف هذا الشيء؟

الهمس ابتعد تدريجيًا، تاركًا صداعًا حادًا خلف عينيه.

ليلى كانت لا تزال فاقدة الوعي بين ذراعيه. من الدور الأول سُمع صوت سرير يتحرك، ثم صمت ثقيل جدًا.

أحمد رفع رأسه نحو السقف الترابي ونظر في الظلام.

لأول مرة منذ دخولهما هذا المكان، شعر أن الليل لن ينتهي.

وأنهما لم يعودا وحدهما داخل رأسيهما.

الفصل الخامس

الصباح الذي لم يأتِ

لم ينم أحمد طوال الليل.

جلس مستندًا إلى الجدار البارد، ورأس ليلى على فخذه، يراقب كل ظل يتحرك في الممر. الفحيح لم يعد، لكن الهمس داخل رأسه كان يعود بين الحين والآخر، كذباب يطنّ خلف عينيه:

«الجسد ينام... الذكريات لا تنام...»

قرب الفجر بدأت ليلى تتحرك. فتحت عينيها ببطء، ونظرت إليه بارتباك، ثم تذكرت. ارتفعت جلستها فجأة وأمسكت بذراعه.

— هل... هل ما زال هنا؟

همس أحمد:

— ذهب. لكن صابر سيأتي قريبًا.

حاولت أن تقف فشعرت بدوخة قوية. تذكرت طعم الجبن المر، ووضعت يدها على بطنها غريزيًا. أحمد لاحظ الحركة. نظر إليها نظرة طويلة ثم قال بصوت منخفض جدًا:

— هو عرف. الشيء هذا عرف أنك...

لم يكمل. ليلى أغمضت عينيها لحظة، ثم هزت رأسها.

— كنت سأخبرك بعد المؤتمر... كنت أنتظر اللحظة المناسبة.

قبل أن يرد سمعا خطوات على السلم.

صابر نزل حاملًا إبريق شاي قديمًا وكوبين معدنيين. وجهه كان أكثر شحوبًا، والشفتان جافتان كأنهما لم تلمسا ماء منذ أيام. وضع الإبريق أمام الباب ثم قال بصوت أجش:

— اشربا. الماء نظيف هذه المرة.

أحمد لم يتحرك.

— لماذا تفعل هذا؟ أنت تعرف أنه سيقتلنا في النهاية.

صابر نظر إلى الأرض لحظة طويلة. بدا كأنه يصارع شيئًا داخله. ثم رفع رأسه، وعيناه غائرتان أكثر من ذي قبل:

— لأنني جربت المقاومة في الأسبوع الأول. كان الألم... لا يُحتمل. يحرق من الداخل كأن النار تمشي في العروق. الآن... أطيع فقط. هذا أسهل.

دفع الإبريق تحت القضبان ومشى عائدًا نحو السلم. لكن قبل أن يصعد توقف وقال دون أن يلتفت:

— في القبو... صناديق قديمة من أيام الحرب. بعضها لم يُفتح. ربما تجدان شيئًا يفيدكما... إن استطعتما الخروج.

ثم صعد وأغلق الباب خلفه.

أحمد التفت إلى ليلى بسرعة.

— هل سمعت؟ هو ما زال يقاوم أحيانًا.

ليلى نظرت إلى الممر المظلم ثم إلى الزنزانة المقابلة حيث لم يبقَ سوى البقعة اللامعة على البطانية.

— أو أنه يريدنا أن نهرب... ليلحق بنا في الخارج حيث لا قضبان.

أحمد أمسك بمبرد الأظافر مرة أخرى وبدأ العمل على القفل هذه المرة، بقوة أكبر ويأس أوضح. المعدن كان صلبًا، وأصابعه بدأت تنزف، لكنه لم يتوقف.

من بعيد، خلف جدران المبنى السميكة، بدأ صوت جديد.

ليس فحيحًا.

صوت رمل يتحرك... كعاصفة تقترب من الصحراء.

الليلة الأولى انتهت.

لكن الحصار كان قد بدأ للتو.

الفصل السادس

محاولة الخروج

مرّت ساعات طويلة بعد أن أغلق صابر الباب خلفه.

الشمس كانت قد ارتفعت في الخارج، وخيوط الضوء الصفراء القاسية دخلت من النافذة العالية ورسمت مربعات على أرضية الزنزانة الترابية. الحر بدأ يتسرب إلى الداخل مرة أخرى.

أحمد لم يتوقف عن العمل بالمبرد. أصابعه كانت مجروحة وتنزف، لكنه شعر أن القفل بدأ يضعف. ليلى جلست بجانبه تساعده، تمسك بالقضيب بقوة كلما ضغط هو على المعدن.

فجأة سُمعت خطوات بطيئة على السلم.

صابر نزل. وجهه هذه المرة مختلف. العينان أقل غورًا، والشفتان ترتجفان كأنهما تحاولان قول شيء ضد إرادتهما.

توقف أمام الباب وقال بصوت مبحوح:

— المفتاح... في جيبي الأيمن. خذاه بسرعة... قبل أن يعود.

أحمد و ليلى تبادلا نظرة سريعة.

مدّ أحمد يده من بين القضبان بحذر. صابر اقترب وأخرج المفتاح بيد مرتجفة ووضعه في كف أحمد. للحظة لمست يداهما بعضهما. كانت يد صابر باردة كالحديد.

همس صابر وهو ينظر إلى الخلف بخوف:

— اذهبا... لا تنظرا ورائي. هو يضعف عندما أقاوم... لكن ليس لوقت طويل.

أحمد أدار المفتاح في القفل. الباب فتح بصوت صرير خافت. خرجا بسرعة، ليلى أمامه. صابر ظل واقفًا مكانه، رأسه منخفضًا، كأن معركة تدور داخله.

اندفعا نحو الباب الرئيسي. أحمد سحب المزلاج بقوة، والباب الخشبي الثقيل انفتح على الصحراء المتوهجة. الهواء الساخن ضرب وجهيهما كأنه جدار.

لكنهما لم يقطعا سوى أمتار قليلة.

الفحيح جاء هذه المرة أعلى وأقرب.

الكتلة الهلامية الخضراء انبثقت من ظل المبنى بسرعة غير متوقعة، كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة. اعترضت طريقهما مباشرة.

ليلى توقفت فجأة وتراجعت خطوة. الضوء الأخضر انعكس في عينيها، والهمس دخل رأسها هذه المرة بقوة:

«أنتِ تحملين حياة جديدة... ذكريات لم تُكتب بعد... ألذ بكثير...»

صرخت ووضعت يديها على أذنيها.

أحمد أمسكها وسحبها للخلف نحو المبنى، لكن الكائن اقترب أكثر. امتدت منه ألسنة شفافة لزجة لمست ذراع ليلى. شعرت بحرقة باردة تسري في جلدها، وسقطت على ركبتيها.

في تلك اللحظة سمع أحمد الهمس داخل رأسه بوضوح تام:

«أعرف سرّك أيضًا... أخوك الذي مات وأنت تقود السيارة... ما زلت تسمع صوت الفرامل كل ليلة...»

تجمد أحمد مكانه لثانية واحدة. كيف عرف؟ لم يخبر أحدًا بهذا منذ خمس عشرة سنة.

صابر ظهر فجأة عند الباب وهو يصرخ بصوت ممزق:

— ارجعوا! ارجعوا الآن!

اندفع نحوهما وأمسك بذراع أحمد بقوة غير متوقعة، ودفعهما داخل المبنى ثم أغلق الباب خلفه بقوة. المزلاج دار مرة أخرى.

الكائن ظل خارجًا لحظة، ضوءه ينبض غاضبًا خلف الباب، ثم انسحب ببطء نحو الرمال.

صابر انهار على الأرض، يتنفس بصعوبة، وعيناه تدمعان رغمًا عنه.

قال بصوت مكسور وهو ينظر إليهما:

— حاولت... والله حاولت. لكنه أقوى. كل مرة أقاوم فيها... يأخذ قطعة مني.

أحمد نظر إلى ذراع ليلى حيث لامسها الكائن. الجلد هناك أصبح شاحبًا وباردًا. ثم نظر إلى صابر المنهار أمامه.

الهروب فشل.

والكائن لم يعد يكتفي بالمراقبة.

الفصل السابع

يوميات صابر

بعد أن أعادهما صابر إلى الزنزانة وأغلق الباب، جلس على الأرض خارج القضبان، ظهره إلى الحائط، ورأسه بين يديه. كان يتنفس بصعوبة كأن شيئًا يضغط على صدره من الداخل.

أحمد راقبه من خلف القضبان. ليلى كانت تمسح ذراعها التي لامسها الكائن، الجلد هناك ما زال باردًا وشاحبًا.

فجأة رفع صابر رأسه. عيناه كانتا أكثر صفاءً من أي وقت مضى منذ أن رأياه. قال بصوت منخفض، كأنه يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إليهما:

— اقرأوا الجدار... هناك في الزاوية اليسرى من غرفتي. اليوميات.

ثم أغلق عينيه مرة أخرى وكأنه يستجمع ما تبقى من قوته.

بعد ساعة صعد أحمد السلم بحذر (صابر ترك الباب مفتوحًا هذه المرة). ليلى تبعته. غرفة صابر في الدور الأول كانت بسيطة: سرير حديدي قديم، طاولة خشبية مهترئة، وكرسي واحد. الجدران مليئة بكتابات بقلم رصاص وأحيانًا بفحم.

بدأ أحمد يقرأ من الزاوية اليسرى، حيث كانت الخطوط أكثر انتظامًا في البداية ثم أصبحت مرتجفة ومشوشة:

---

3 أغسطس

سقط شيء في الصحراء الليلة الماضية. ضوء أخضر قوي ثم انفجار خفيف. ذهبت في الصباح. وجدت حفرة صغيرة وكتلة هلامية بحجم قبضة اليد. ظننتها نباتًا غريبًا أو بقايا نيزك. لمستها بيدي... منذ تلك اللحظة وأنا أسمع صوتًا داخل رأسي.

5 أغسطس

الصوت أصبح أوضح. يقول لي أسماء أناس لم أقابلهم أبدًا. يقول لي إنني وحيد منذ ماتت فاطمة، وإنه يستطيع أن يملأ الفراغ. حاولت أن أحرقه بالبنزين. الألم كان كالنار تمشي في عروقي. استسلمت.

9 أغسطس

أحضرت له أول طعام. سائق لوري توقف ليسأل عن الطريق. الكائن التهمه أمامي. كنت أرى كل شيء ولا أستطيع أن أحرك ساكنًا. بعد ذلك كتب على الحائط بيدي: الضحية الأولى.

14 أغسطس

أقاوم كل ليلة. أحيانًا أنجح لساعات. أكتب هذه السطور وأنا أسيطر على نفسي. إذا قرأ أحد هذا... اقتلوني قبل أن يأخذني بالكامل. أنا لست أنا منذ أسابيع.

21 أغسطس

الليلة جاءا. الرجل والمرأة. الكائن فرح. قال إن ذكرياتهما غنية. خاصة المرأة... هناك حياة جديدة داخلها. أنا أخاف عليهما. لكنني أعرف أنني سأطيع في النهاية.

أحمد توقف عن القراءة. الخط أصبح بعدها غير مفهوم، خطوط متشابكة وكلمات مكررة: «يؤلمني... أطيع... فاطمة...».

ليلى كانت تقرأ بجانبه، دموعها تسيل بصمت. همست:

— كان يقاوم حتى آخر لحظة...

من الأسفل جاء صوت صابر، مبحوحًا وواضحًا هذه المرة:

— انزلوا... هو يعود. أشعر به يقترب من الرمال مرة أخرى.

نزل أحمد وليلى بسرعة. صابر كان واقفًا عند باب الزنزانة، المفتاح في يده مرة أخرى. لكنه هذه المرة لم ينظر إليهما كعدو. نظر إليهما كرجل يعرف أنه ينفد الوقت.

قال بصوت خافت قبل أن يغلق الباب عليهما من جديد:

— إذا وجدتما طريقة... لا تترددا في قتلي أولًا. أنا لم أعد أستحق النجاة.

ثم صعد السلم ببطء، وكل خطوة كانت تبدو أثقل من التي قبلها.

الفصل الثامن

الهمسات

الليل الثاني كان أثقل من الأول.

لا فحيح هذه المرة في البداية، فقط صمت كثيف يضغط على الأذنين كأنه يملأ الزنزانة عن آخرها. أحمد جلس القرفصاء أمام الباب، ظهره إلى ليلى، يحاول أن يبقي عينيه مفتوحتين. لكنها كانت تغلق رغمًا عنه بين الحين والآخر.

ليلى لم تكن نائمة.

كانت مستلقية على جنبها، يداها حول بطنها، وعيناها مفتوحتان في الظلام. فجأة بدأت ترى أشياء.

لم تكن أحلامًا.

كانت ذكريات... لكنها مشوهة.

رأت نفسها طفلة في السابعة، تجري في حديقة منزل جدتها في المنصورة. ثم تحولت الحديقة فجأة إلى رمال صفراء لا نهاية لها، وجدتها أصبحت الكتلة الهلامية الخضراء تمتد نحوها بألسنة شفافة. سمعت صوت جدتها يقول بصوت الكائن:

«تعالي... الذكريات القديمة لذيذة... والجديدة ألذ...»

صرخت ليلى وفتحت عينيها فزعة. أحمد التفت بسرعة وأمسك بكتفيها.

— ماذا رأيت؟

كانت تتنفس بسرعة.

— هو داخلي... يبحث في رأسي. يرى طفولتي... ويرى... الجنين.

أحمد شعر بشيء بارد يسري في ظهره. الهمس جاءه هذه المرة هو أيضًا، أوضح من أي مرة سابقة:

«الرجل قوي الجسد... لكن المرأة أغنى. الحياة الجديدة داخلها لم تُكتب بعد. سآخذها أولًا... ثم آخذك.»

ضغط أحمد على رأسه بيديه.

— اخرج!

ليلى نظرت إليه وعيناها ممتلئتان بالرعب والغضب معًا. قالت بصوت مرتجف:

— هو يختارني لأنني أضعف الآن... أو لأن ما أحمله يجعلني أشهى.

أحمد أمسك يديها بقوة.

— لن أتركه يلمسك مرة أخرى.

ضحكت ضحكة قصيرة مرة.

— كيف؟ نحن محبوسان هنا. وأنت نفسك سمعت ما قاله عن أخيك. هو يعرف كل شيء عنا. ربما... ربما لو قدّمت نفسي...

— لا تكمِلِي.

صوته كان حادًا لأول مرة منذ دخولهما هذا المكان. نظر إليها في الظلام وقال بهدوء مخيف:

— لن يمسك أحد. لا هو ولا صابر. إذا كان لا بد من تضحية... فأنا أولًا.

ليلى هزت رأسها بعنف، والدموع تنزل على وجهها.

— لا تقل هذا. أنا لن أعيش إذا أخذك. وأنا أحمل...

لم تستطع إكمال الجملة. انحنت إلى الأمام ووضعت رأسها على صدره. أحمد احتضنها بقوة، شعرها يلامس خده، ورائحة التراب والعرق والخوف تملأ أنفه.

من خارج الزنزانة، في الممر المظلم، بدأ الفحيح من جديد.

هذه المرة كان أقرب... وأبطأ... كأنه يستمتع بالاستماع إليهما.

الهمس دخل رأس ليلى مرة أخيرة قبل أن ينسحب الصوت:

«اختارا ما شئتما... في النهاية سآخذ الاثنين. والذكرى الجديدة... ستكون لي وحدي.»

أحمد رفع رأسه نحو القضبان ونظر في الظلام.

للمرة الأولى منذ أن بدأت هذه الكابوس، شعر أن الخوف لم يعد من الكائن فقط...

بل من الفكرة التي بدأت تزحف إلى عقله هو أيضًا:

هل يستطيع فعلاً أن يحميها؟

أم أن الليلة ستنتهي ب выборе مستحيل؟

أثناء تركيز الكائن على ليلى، وبعد أن بدأت ترى ذكريات طفولتها مشوهة، أضفنا هذا المقطع:

[HR/][HR]

فجأة تغيرت الرؤية. لم تعد في حديقة جدتها. أصبحت في مكان آخر تمامًا: سماء بنفسجية داكنة، وبحيرة معدنية تلمع، وجسد فضي لامع فوقها. شعرت بحرارة غريبة تسري بين فخذيها، وبشيء يدخلها بعمق وقوة. سمعت أنينًا أنثويًا منخفضًا... ثم صوتًا رجوليًا يلهث باسم غريب: «ليثرا... ليثرا».

الشعور كان جنسيًا عنيفًا وممتعًا ومخيفًا في الوقت نفسه. ثم بدأ الجسد الفضي فوقها يذوب. اللحم يتحول إلى هلام ساخن يسيل على جلدها. صرخت ليثرا (أو هي؟) بصوت يتحول تدريجيًا إلى فحيح.

ليلى فتحت عينيها فزعة وهي تتنفس بسرعة، ويدها تضغط على بطنها. همست لأحمد بصوت مكسور: — رأيت... جسدًا يذوب وهو يمارس الحب... وامرأة تصرخ ثم تصبح مثل هذا الشيء.

الفصل التاسع

القبو

بعد منتصف الليل الثاني ساد صمت غريب.

الفحيح اختفى تمامًا، والهمسات داخل رأسيهما هدأت كأن الكائن ابتعد أو نام. صابر لم ينزل منذ ساعات.

أحمد نظر إلى ليلى في الظلام وقال بصوت خافت:

— الآن أو لا نحاول أبدًا.

كانت يداها ما زالت حول بطنها، لكنها هزت رأسها موافقة. أحمد أخرج المبرد من جيبه وبدأ العمل على القفل من جديد. هذه المرة كان أضعف مما بدا في الليلة الأولى، ربما لأن صابر لم يغلقه بالقوة المعتادة. بعد عشر دقائق من الجهد المستمر دار المفتاح الداخلي، والباب فتح بصوت صرير خافت.

خرجا على أطراف أصابعهما.

الممر كان مظلمًا تمامًا. أحمد أمسك بيد ليلى وسارا نحو نهاية الممر حيث كان هناك باب خشبي قديم يؤدي إلى القبو. الباب كان مواربًا. دفعاه برفق ونزلا السلم الحجري الضيق.

القبو كان أبرد من الزنزانة، ورائحته مختلطة بين التراب والرطوبة والزيت القديم. على الجدران أرفف خشبية مهترئة، وفي الزوايا صناديق معدنية كبيرة مكتوب عليها بالإنجليزية الباهتة:

U.S. ARMY – 1943

EXPLOSIVES – HANDLE WITH CARE

أحمد فتح أحد الصناديق بحذر. داخله كانت هناك بقايا ذخيرة صدئة، وأحزمة رصاص فارغة، وفي الزاوية شيء ملفوف بقطعة قماش سميكة. رفعها ببطء.

قنبلة يدوية.

الجسم معدني زيتوني اللون، والحلقية ما زالت في مكانها. بدت سليمة رغم مرور أكثر من ثمانين سنة.

همس لليلى:

— هذه قد تكون فرصتنا الوحيدة.

ليلى لم ترد. كانت تنظر إلى الزاوية المظلمة في نهاية القبو. فجأة أمسكت ذراعه بقوة.

— أحمد... هناك شيء يتحرك.

الضوء الأخضر الخافت بدأ يظهر من خلف أحد الصناديق الكبيرة. الفحيح جاء هذه المرة منخفضًا وراضيًا، كأنه كان ينتظرهما منذ البداية.

الكتلة الهلامية انبثقت ببطء، أكبر مما بدت في المرتين السابقتين. ألسنة شفافة امتدت نحوهم عبر الأرضية الترابية.

أحمد دفع ليلى خلفه ورفع القنبلة. أصابعه ارتعشت حول الحلقية.

الهمس دخل رأسيهما في اللحظة نفسها، أقوى وأكثر وضوحًا:

«القنبلة قديمة... قد لا تنفجر. وحتى لو انفجرت... سآخذ جزءًا منكما قبل أن أموت. خاصة هي...»

ليلى صرخت:

— ارمه الآن!

لكن أحمد تردد لجزء من الثانية. في تلك اللحظة امتدت ألسنة الكائن بسرعة غير متوقعة ولامست قدم ليلى. سقطت على الأرض وهي تصرخ من الحرقة الباردة التي سرت في ساقها.

أحمد سحب الحلقية.

الصوت المعدني الصغير كان واضحًا في صمت القبو.

رمى القنبلة نحو الكتلة الهلامية ورمى بنفسه فوق ليلى يحتمي بها.

الانفجار لم يحدث فورًا.

مرت ثانيتان... ثلاث...

ثم دوّى صوت مكتوم عنيف، وملأت القبو موجة حرارية ودخان كثيف ورائحة كيميائية حادة. الضوء الأخضر اختفى فجأة وسط الصرخة الصامتة التي شعرا بها داخل رأسيهما أكثر مما سمعاها بآذانهما.

عندما رفع أحمد رأسه، كان الغبار يملأ المكان. بقايا الكائن السائلة متناثرة على الأرض والجدران، تتحرك بضعف ثم تتوقف تدريجيًا.

ليلى كانت تتنفس بصعوبة، ساقها ما زالت باردة، لكنها حية.

أحمد ساعدها على الوقوف. القبو أصبح مكانًا مختلفًا فجأة... هادئًا وخطرًا في الوقت نفسه.

من أعلى السلم جاء صوت خطوات بطيئة.

صابر ظهر عند المدخل، وجهه شاحب كالموت، وعيناه تحدقان في البقايا اللامعة على الأرض.

قال بصوت مبحوح كأن شيئًا انكسر داخله نهائيًا:

— قتلتموه... أخيرًا قتلتموه.

ثم سقط على ركبتيه وبدأ يبكي بصمت.

الفصل العاشر

الاختيار

صابر ظل جاثمًا على ركبتيه عند مدخل القبو وقتًا طويلًا.

الدموع كانت تسيل على وجهه الشاحب دون صوت، ويداه ترتجفان فوق ركبتيه. أحمد وليلى وقفا على مسافة منه، يراقبان البقايا السائلة للكائن وهي تتوقف عن النبض تدريجيًا وتفقد ضوءها الأخضر حتى أصبحت مجرد بقعة لزجة داكنة على التراب.

أخيرًا رفع صابر رأسه. عيناه كانتا صافيتين تمامًا لأول مرة منذ أن رأياه. قال بصوت مكسور لكنه واضح:

— أشعر به... ما زال هناك. جزء صغير منه حي. يختبئ داخل الرمال أو داخل الجدران. لم ننهه بالكامل.

أحمد ساعد ليلى على الجلوس فوق أحد الصناديق، ثم التفت إلى صابر.

— ماذا نفعل الآن؟

صابر نظر إلى القنبلة اليدوية الفارغة الملقاة على الأرض، ثم إلى البقايا، ثم إليهما. صمت طويلًا قبل أن يقول:

— طوال الأسابيع الماضية كنت أطيع لأنه كان يؤلمني إذا رفضت. الآن الألم أقل... لكنه لم يختفِ. جزء منه ما زال داخلي. إذا تركتماني حيًا، قد أعود عبدًا له مرة أخرى عندما يستعيد قوته.

ليلى تكلمت لأول مرة منذ الانفجار، صوتها ضعيف لكن ثابت:

— أنت ساعدتنا. حاولت أكثر من مرة.

صابر هز رأسه ببطء.

— المحاولات لم تكن كافية. الناس الذين أحضرتهم له... السائق، والرجل النحيف، وآخرون قبلهما... أنا من أوصلهم. يدي ملطخة أكثر من يديه.

وقف بصعوبة، مستندًا إلى الجدار. نظر إلى السلم الحجري ثم عاد ينظر إليهما.

— أمامكم اختياران.

إما تتركاني هنا وتخرجان الآن نحو السيارة... أو تنهيان الأمر معي قبل أن يعود الجزء المتبقي منه ويسيطر عليّ من جديد.

أحمد شعر بثقل الكلمات. نظر إلى ليلى، فرأى في عينيها نفس الحيرة والرعب. القبو كان هادئًا الآن، لكن الرمال خارج المبنى كانت تتحرك مع الريح كأنها تهمس.

صابر مد يده إلى جيبه وأخرج مسدسًا صغيرًا قديمًا. وضعه على الصندوق بجانب ليلى ثم تراجع خطوتين.

— هذا كان معي منذ البداية. لم أستطع استخدامه على نفسي... لأن الجزء الذي بداخلي كان يرفض. الآن أستطيع أن أعطيكم الفرصة.

أحمد لم يلتقط المسدس فورًا. نظر إلى الرجل المنهار أمامه، الرجل الذي كتب يومياته وهو يصارع، والذي فتح لهما الباب أكثر من مرة رغم الخطر.

ليلى همست:

— أحمد...

في الخارج بدأت الرياح تشتد. صوت الرمال على الجدران أصبح أعلى. ومن بعيد جدًا، أو من تحت الأرض، عاد همس خافت جدًا... أضعف من أي مرة سابقة، لكنه موجود:

«لم أنتهِ بعد...»

صابر أغلق عينيه ووقف منتصبًا قدر استطاعته.

قال بصوت هادئ كأنه يطلب معروفًا أخيرًا:

— اختارا. بسرعة. قبل أن يعود أقوى... وقبل أن أفقد نفسي مرة أخرى إلى الأبد.

الصمت ملأ القبو.

أحمد مد يده ببطء نحو المسدس.

ليلى أمسكت ذراعه.

والاختيار... كان ينتظر.

الفصل الحادي عشر

القرار

يد أحمد توقفت في الهواء فوق المسدس.

القبو كان غارقًا في صمت كثيف لا يقطعه سوى صوت تنفس الثلاثة وصوت الرياح التي تشتد في الخارج. ليلى لم تفلت ذراعه. كانت تنظر إلى صابر ثم إلى المسدس ثم إليه، وعيناها تقولان ما لم تستطع الكلمات قوله.

صابر ظل واقفًا منتصبًا قدر استطاعته. لم يتحرك ليلتقط السلاح، ولم يتراجع. قال بصوت هادئ جدًا:

— لا تطيلوا التفكير. كل دقيقة تمر تجعل الجزء المتبقي منه أقوى. أشعر به الآن... يزحف داخل الجدران، يبحث عن طريقة يعود بها.

أحمد سحب يده ببطء دون أن يمسك المسدس. نظر إلى ليلى وقال بصوت منخفض:

— لا أستطيع. ليس بهذه الطريقة.

ليلى ابتلعت ريقها. صوتها جاء مبحوحًا:

— هو طلب هذا بنفسه... وهو يعرف أكثر منا ما يفعله هذا الشيء.

صابر ابتسم ابتسامة باهتة مريرة.

— أنا أعرف لأنني عشت معه أسابيع. الجزء الذي بقي ليس ضعيفًا كما تظنان. هو يختبئ في الرمال تحت المبنى، ويتغذى على البقايا التي تركناها في القبو. إذا لم نحرقه بالكامل قبل الشروق... سيعود خلال يومين أو ثلاثة، وسيكون أكثر شراسة.

أحمد رفع رأسه.

— كيف نحرقه؟

صابر أشار إلى الزاوية البعيدة من القبو حيث كانت هناك براميل معدنية قديمة متراصة.

— هذه البراميل فيها بقايا بنزين وزيوت من أيام الحرب. بعضها ما زال صالحًا. إذا سكبتموه على البقع اللامعة في القبو وفي الممر، ثم أشعلتم النار... و أغلقتم المبنى عليه، سيموت الجزء المتبقي اختناقًا وحرقًا. لكن يجب أن يكون أحدنا بالداخل ليتأكد أن النار تصل إلى كل مكان.

صمت ثقيل سقط على الثلاثة.

ليلى فهمت أولًا. نظرت إلى صابر وقالت بصوت مرتجف:

— وأنت ستبقى؟

هز رأسه مرة واحدة.

— هذا اختياري هذه المرة. ليس اختياره هو. أريد أن أنهي ما بدأته بيدي.

أحمد اقترب منه خطوة.

— هناك طريقة أخرى. نخرج جميعًا ونحرق المبنى من الخارج.

صابر هز رأسه ببطء.

— لن تصل النار إلى العمق بهذه الطريقة. هو يختبئ تحت الأساسات. يجب أن تكون النار من الداخل... ويجب أن يُغلق الباب بعد إشعالها.

نظر إلى المسدس مرة أخيرة ثم دفعه نحو أحمد.

— خذاه معكما. قد تحتاجانه في الخارج. أما أنا... فقد انتهيت من الخوف.

ليلى كانت تبكي بصمت الآن. اقتربت من صابر ومدت يدها وأمسكت يده للحظة قصيرة. كانت يده باردة، لكنها ضغطت على يدها بقوة إنسانية خالصة.

همس لها:

— اعتني بما تحمليه. اجعلي هذه القصة تستحق ما دفعناه جميعًا.

ثم سحب يده بلطف واتجه نحو البراميل. بدأ يفتح أحدها بيديه العاريتين. رائحة البنزين القديم انتشرت في القبو فورًا.

أحمد التقط المسدس أخيرًا ووضعه في حزامه. نظر إلى ليلى فرأى أنها قد حسمت أمرها هي أيضًا. أومأت برأسها بصمت.

صابر التفت إليهما للمرة الأخيرة وقال:

— اصعدا الآن. أغلقوا الباب الرئيسي ورائي بعد أن تسمعوا صوت النار. لا تنتظرا. لا تنظرا إلى الخلف.

أحمد أمسك بيد ليلى. صعدا السلم الحجري ببطء. عند المدخل العلوي توقف أحمد لحظة ونظر إلى الأسفل.

صابر كان يسكب البنزين على البقايا وعلى الأرض حوله. وجهه في ضوء خافت بدا هادئًا لأول مرة منذ زمن طويل.

القرار اتُّخذ.

والثمن بدأ يُدفع.

أثناء حديث صابر عن البقايا، وعندما اقترب الكائن من وعيه للمرة الأخيرة، أضفنا هذا الهمس المشترك الذي سمعه أحمد وليلى معًا:

[HR/][HR]

فجأة دخل الهمس إلى رأسيهما في اللحظة نفسها، أوضح من أي مرة سابقة، ومليئًا بألم قديم:

«كنتُ مثلكما… كان لي جسد. كنت أدخلها فتئن وتغرس أظافرها في ظهري. كانت تضيّق عليّ من الداخل كأنها تريد أن تبتلعني. اسمها ليثرا. أحببتها حتى الجنون. مارست معها الحب حتى نسيتُ اسمي. ثم جاءت السماء المشتعلة… وذاب جسدها بين يدي وأنا ما زلت بداخلها. صرخت باسمي وهي تتحول إلى هلام… وأنا تحولت معها. الآن لم يبقَ إلا الجوع. جوع إلى ما كان بيننا. جوع إلى ما تحمله هذه المرأة داخلكما».

صابر ارتعش بعنف وكأنه تلقى صدمة، وقال بصوت مبحوح: — هو يتذكر امرأة… كان يحبها. ولهذا يركز على ليلى.

الفصل الثاني عشر

البقايا

أحمد وليلى وصلا إلى الباب الرئيسي وهم يلهثان.

الرياح في الخارج كانت قد اشتدت، والرمل يضرب وجهيهما كإبر دقيقة. أحمد أمسك المزلاج مستعدًا لإغلاقه في اللحظة المناسبة، بينما ليلى راقبت السلم المؤدي إلى القبو بقلق.

من الأسفل جاء صوت صابر وهو يصرخ فجأة:

— اغلقا الآن! هو يتحرك!

ثم دوّى صوت اشتباك. فحيح غاضب مرتفع هذه المرة، مختلط بصوت رجل يقاوم. أحمد تردد لثانية واحدة، لكن ليلى أمسكت يده بقوة وهمست:

— افعل ما قاله... وإلا مات عبثًا.

دفع أحمد الباب بقوة وأدار المزلاج مرتين. في اللحظة نفسها سمعا من تحت الأرض صوت عود ثقاب يُشعل، ثم صوت لهب يندلع بسرعة.

بعد ثوانٍ صرخ صابر صرخة واحدة حادة... ثم صمت.

لكن الصمت لم يدم.

شيء ما ضرب الباب من الداخل بقوة هائلة. الخشب اهتز، والمزلاج ارتجف. ضوء أخضر خافت تسرب من الشقوق حول الباب، والفحيح عاد أعلى وأكثر غضبًا من أي مرة سابقة.

الجزء المتبقي من الكائن كان يحاول الخروج.

أحمد سحب ليلى بعيدًا عن الباب ورفع المسدس. أطلق رصاصة نحو الشق الذي يخرج منه الضوء الأخضر. الصوت دوّى في الصحراء، والضوء تراجع للحظة ثم عاد أقوى.

من داخل المبنى بدأت رائحة الدخان الكثيف تتسرب. النار كانت تشتعل بسرعة في القبو وتصعد. صرخات غير بشرية اختلطت بطقطقة الخشب المحترق.

فجأة انشق جزء من الباب.

كتلة هلامية أصغر من السابق، لكنها أسرع وأكثر كثافة، اندفعت من الشق نحو أحمد. أطلق الرصاصة الثانية فأصابتها في المنتصف. الكتلة ارتجت وتناثرت منها سوائل مضيئة، لكنها استمرت في التقدم.

ليلى التقطت حجرًا كبيرًا من الأرض ورمته بكل قوتها. الحجر أصاب الكتلة فجعلها تتراجع خطوة. في تلك اللحظة اشتدت النار داخل المبنى، وألسنة اللهب ظهرت من النوافذ الضيقة في الدور الأرضي.

الكتلة أطلقت فحيحًا أخيرًا عاليًا ثم انسحبت بسرعة نحو الرمال تحت الأساسات، تاركة أثرًا لامعًا يختفي تحت المبنى المحترق.

أحمد أمسك بيد ليلى وسحبا نفسيهما بعيدًا.

الخلفية أصبحت جحيمًا من اللهب والدخان الأسود الذي يتصاعد نحو السماء الداكنة. صوت انهيار خشب وطوب بدأ يتردد.

لم يظهر صابر.

ولم يعد هناك فحيح.

أحمد وقف يراقب المبنى وهو يبتلع نفسه بالنار، والمسدس ما زال في يده. ليلى كانت تبكي بصمت، رأسها على كتفه.

همس أحمد وهو ينظر إلى اللهب:

— انتهى... هذه المرة انتهى.

لكن في الرمال تحت أقدامهما، على بعد أمتار قليلة من الأساسات المحترقة، كانت هناك بقعة صغيرة لامعة جدًا... تنبض مرة واحدة بطيئة ثم تتوقف.

الريح اشتدت وحملت الرمل فوقها فغطتها تمامًا.

السيارة كانت تنتظر على بعد مئتي متر.

والليل كان لا يزال طويلًا.

الفصل الثالث عشر

الهروب الأخير

المبنى كان يشتعل خلفهما كشعلة هائلة في وسط الصحراء.

ألسنة اللهب تلتهم الطابق الأرضي وتصعد نحو الدور الأول، والدخان الأسود الكثيف يتصاعد عموديًا قبل أن تشتته الرياح القوية. صوت الانهيارات الداخلية يتردد كل بضع ثوانٍ.

أحمد أمسك بيد ليلى بقوة وسارا مسرعين نحو السيارة التي تركتاها بجانب محطة البنزين المهجورة. الرمل كان يضرب وجهيهما بعنف، والرياح تزداد شدة مع كل خطوة. العاصفة الرملية التي كانت تتجمع منذ ساعات بدأت تضرب الآن بقوة.

ليلى تعثرت مرة فأمسكها أحمد قبل أن تسقط. ساقها التي لامسها الكائن ما زالت باردة وتؤلمها، لكنها لم تتوقف. قالت بصوت مرتفع فوق صوت الرياح:

— هل تظن أنه مات فعلاً؟

أحمد لم يجب فورًا. كان ينظر إلى الأرض حولهما بين الحين والآخر. الرمال تتحرك بشكل غير طبيعي في بعض البقع، كأن شيئًا رفيعًا يزحف تحتها ثم يختفي.

وصلوا إلى السيارة أخيرًا. أحمد فتح الباب وأدخل ليلى بسرعة ثم دار حولها وركب. المفتاح كان ما زال في الكونتاكت كما تركوه. أداره... المحرك دار بصعوبة ثم اشتغل.

تنهد الاثنان بعمق لأول مرة منذ ساعات.

أحمد شغل المصابيح الأمامية. الضوء الأصفر الضعيف بالكاد يشق العاصفة. الطريق الترابي القديم الذي جاءا منه كان قد اختفى تقريبًا تحت الرمال المتحركة. انطلق بالسيارة ببطء، محاولًا البقاء على الأثر القديم.

بعد دقائق قليلة لاحظت ليلى شيئًا على يمين الطريق.

أشارت بيدها وهي تقول:

— هناك... ضوء.

أحمد نظر. على بعد مئات الأمتار، وسط العاصفة، كانت هناك نقاط خضراء باهتة صغيرة تتحرك فوق الرمال ثم تختفي. ليست واحدة... بل عدة نقاط متفرقة، كأنها تبحث عن شيء.

همس أحمد وهو يضغط على دواسة البنزين أكثر:

— لم يكن وحيدًا... أو أن البقايا تكاثرت.

ليلى وضعت يدها على بطنها غريزيًا ونظرت إلى الخلف من النافذة. المبنى المحترق أصبح نقطة حمراء بعيدة تتلاشى خلف ستار الرمل. النقاط الخضراء اختفت فجأة كأن الرمال ابتلعتها.

السيارة اهتزت بعنف فوق الطريق غير المستوي. أحمد أمسك عجلة القيادة بقوة وحاول الحفاظ على الاتجاه نحو الطريق الرئيسي حسب ذاكرته.

فجأة ظهرت أمامهما مباشرة كتلة رملية متحركة أكبر من البقية. السيارة اصطدمت بها بجانب العجلة الأمامية. ارتجت بشدة، وانطفأت المصابيح للحظة قبل أن تعود.

أحمد صرخ:

— امسكي!

ضغط على البنزين بكل قوته. السيارة قفزت فوق الرمال وانطلقت مبتعدة. خلفهما لم يعد هناك أثر للضوء الأخضر... فقط عاصفة تزداد شراسة والظلام يبتلع كل شيء.

ليلى نظرت إلى أحمد. وجهه كان مغطى بالغبار والعرق، وعيناه مثبتتان على ما تبقى من الطريق.

قالت بصوت خافت يكاد يضيع وسط صوت المحرك والرياح:

— هل نجا أحد منا فعلاً من هذا المكان؟

أحمد لم يرد.

كان يعرف أن الإجابة لن تأتي قبل أن يشرق الصباح... إن أشرق.

الفصل الرابع عشر

الثمن

الفجر جاء شاحبًا وباردًا.

العاصفة الرملية هدأت تدريجيًا مع أول خيوط الضوء الرمادية، والسيارة كانت ما زالت تسير ببطء على الطريق الترابي الذي بدأ يتضح مع انحسار الرمال. أحمد لم يتكلم منذ ساعات. يداه ممسكتان بعجلة القيادة بقوة، وعيناه محمرتان من الغبار والتعب والسهر.

ليلى كانت مستندة إلى الباب، رأسها على الزجاج، وساقها التي لامسها الكائن ما زالت باردة رغم مرور الوقت. بين الحين والآخر تضع يدها على بطنها كأنها تتأكد أن الحياة هناك ما زالت موجودة.

بعد ساعة إضافية ظهرت أولى علامات الطريق الرئيسي: أعمدة كهرباء بعيدة، ثم لافتة صدئة تشير إلى أقرب مدينة على بعد ستين كيلومترًا. أحمد أوقف السيارة على جانب الطريق وتنهد تنهيدة طويلة كأنها خرجت من أعماق روحه.

نظر إلى ليلى وقال بصوت مبحوح:

— وصلنا... تقريبًا.

ابتسمت ابتسامة ضعيفة باهتة.

— هل تظن أننا سنستطيع أن نروي هذا لأحد؟

هز رأسه.

— لن يصدقنا أحد. وربما الأفضل ألا نحاول.

جلسا صامتين دقائق طويلة. الشمس بدأت ترتفع، والصحراء استعادت صمتها القديم القاسي. خلفهما، على بعد عشرات الكيلومترات، كان المبنى قد تحول إلى كومة من الرماد والأسود، وصابر معه.

أحمد مد يده وأمسك يد ليلى. كانت باردة قليلًا. قال بهدوء:

— سنذهب إلى أقرب مستشفى. نفحص ساقك... ونفحص ما تحمليه. ثم نحاول أن نعيش كأن شيئًا لم يحدث.

ليلى نظرت إلى الأفق ولم ترد فورًا. بعد لحظة همست:

— وأنا أشعر أحيانًا أن شيئًا ما زال يهمس... بعيدًا جدًا داخل رأسي. خافتًا... لكنه موجود.

أحمد ضغط على يدها ولم يعلق. هو أيضًا كان يسمع أحيانًا، في لحظات الصمت العميق، صوتًا يشبه الفحيح البعيد جدًا، كذكرى لا تريد أن تموت.

أعد تشغيل المحرك وانطلقا نحو المدينة.

الطريق أصبح أكثر وضوحًا، والسيارات الأخرى بدأت تظهر من بعيد. الحياة العادية كانت تنتظرهما هناك: الناس، والضوضاء، والأطباء، والأسئلة التي لن يستطيعا الإجابة عنها بصراحة.

لكن في صندوق السيارة الخلفي، بين أدوات الإصلاح القديمة، كانت هناك بقعة صغيرة جدًا لامعة، بحجم ظفر الإصبع، ملتصقة بالمعدن.

كانت تنبض مرة كل بضع دقائق... ببطء شديد... كأنها نائمة.

أو كأنها تنتظر.

أحمد وليلى لم يلاحظاها.

كانا ينظران إلى الأمام فقط، حيث المدينة تقترب، وحيث الأمل يختلط بالخوف الذي لن يفارقهما بسهولة.

الثمن دُفع.

والقصة... ربما لم تنتهِ بعد.

انتهت

في نهاية الفصل، بعد أن توقفا على جانب الطريق، وعندما سمعت ليلى الهمس الخافت للمرة الأخيرة، أضفنا الرؤية الأطول:

[HR/][HR]

أغمضت ليلى عينيها لحظة من الإعياء. فورًا جاءت الرؤية واضحة هذه المرة، كأنها ذكرى ليست لها:

رأت الرجل الفضي البشرة (سارّين) يرفع ساقي ليثرا عاليًا ويدفع داخلها بقوة وهو ينظر في عينيها البنفسجيتين. سمعتها تئن بصوت مبلل وتطلب منه ألا يتوقف. رأته يمارس معها الحب على ضفاف البحيرة المعدنية، ثم في الكهف الدافئ، ثم تحت السماء البنفسجية. كل مرة أعنف وأكثر شهوة. ثم جاء اليوم الذي بدأت فيه بشرتها تلمع بشكل غريب وتسيل. حاول أن يتمم العملية وهو يبكي، لكنها ذابت تمامًا وهو ما زال بداخلها، وتحول هو أيضًا معها في اللحظة نفسها.

الصوت الأخير الذي سمعته قبل أن تفتح عينيها كان همسًا حزينًا وجائعًا في آن واحد:

«ضاعت ليثرا... وبقي الجوع. وأنتِ... تشبهينها حين تتعانقين».

ليلى فتحت عينيها بسرعة، والدموع على وجهها. نظرت إلى أحمد وقالت بصوت خافت جدًا: — هو لم يكن وحشًا من البداية... كان رجلًا يحب امرأة. ثم تحول إلى هذا.

أحمد أمسك يدها ولم يرد. في صندوق السيارة الخلفي، البقعة اللامعة الصغيرة نبضت مرة واحدة... كأنها وافقت.